نظرة... الى ما خلّفته الحرب.

من تجارب التمرد الفردي على "مجتمع الحرب"

محمد ابي سمرا

عملت الحرب المديدة في لبنان على عسكرة وجوه من الاجتماع اللبناني، وعلى اعتصاب الجماعات الاهلية والطائفية اللبنانية. وكانت الاجيال الشابة التي انضوت في الميليشيات المسلحة المتناحرة، محور هذه العسكرة ويدها الضاربة في مراحل الحرب المتعاقبة. وهذا ما ادى الى طغيان نموذج المقاتل الميليشيوي وبروزه مثالا في حياة الشبان ومخيلاتهم. وهما طغيان وبروز وثيقا الصلة بالمنابت الاجتماعية والثقافية للاجيال الشابة في كل جماعة ومنطقة وطائفة.

فالنموذج الميليشيوي استمد شرعيته من هويات الجماعات الطائفية المتناحرة التي نطق باسمها ودافع عنها. وهذا ما آل الى تسلط الميليشيات على الحياة العامة، ودفع الى الهوامش والصمت نماذج اخرى للعيش في اوساط فئات من الشبان اللبنانيين الذين لم يسحرهم النموذج الميليشيوي ولا اخذ بشغاف قلوبهم وجوارحهم ولا الهب مخيلاتهم. هناك عوامل كثيرة، اجتماعية واسرية وتكوينية وشخصية، عصمت فئات وافرادا من الشبان اللبنانيين من الانخراط في صفوف الميليشيات المختلفة. وربما شكل غياب "الانتماء العضوي" وثقافته القاسم المشترك او الجامع الذي عصم هؤلاء الشبان من الالتحام بالقطيع الحربي والالتحاق به.

والراهن ان النتاج الثقافي اللبناني، نقدا ورواية وابحاثا واستطلاعات وتحقيقات صحافية، سكت عن استنطاق ثقافة القطيع الحربي وقيمها واشكالها وصورها المعيشية الا في ما ندر. وسكت ايضا عن استنطاق النماذج الاخرى المعاكسة لهذه الثقافة، اي ثقافة اولئك الشبان الذين لم يجذبهم النموذج الميليشيوي ولا دانوا له بالولاء ولا سلطوه على انفسهم وحياتهم. وكان شارل شهوان في كتابه "حرب شوارع" الصادر قبل اعوام قد سجل فصولا ومشاهد من حياة القطيع الحربي اليومية ونشاطاته واهوائه على خطوط التماس، وخلفها في عمق البيئة الشبابية المسيحية في زمن الحرب وطغيان نموذجها الميليشيوي. اما يوسف بزي فسجل، في شهادة مسمبة، نشرها في "الملحق" (٧ تشرين الاول ١٩٩٥) سيرة خروجه على ثقافة القطيع الحربي وحياته، في صورهما العضوية، في "مجمعات التهجير" في "بيروت الغربية" وضاحيتها الجنوبية.

غير ان فئات الشبان الذين لم يتسلط النموذج الميليشيوي على حياتهم، وما نصبوه مثالا لهم، ومنهم من تمرد على هذا النموذج وعمل في مناسبات ومواضع على التصدي الفردي والشللي له، ظلت اصواتهم مكتومة كتجاربهم الموضعية والجزئية التي تشهد لتمردهم الفردي على "مجتمع الحرب"، طقوسه وشعائره وقيمه العامة وثقافته العضوية الساحقة.

في هذه الشهادة من ميشال الفتريادس، الذي نشر "الملحق" محطات من سيرة عائلته اليونانية الاصل، في هجرتها وتوطنها في لبنان، نحاول ان نفتتح مجالا لشهادات وسير تنقل تجارب جزئية فردية وجماعية، لمتمردين على "مجتمع الحرب" وقيمه وثقافته.

بين الثامنة والرابعة عشرة من عمري كنت قائدا مؤسسا لعصبة من عصب اطفال عجلتون وصبيتها، اولئك الذين أخذتهم شهوة تقليد "حروب الكبار"، واصابتهم عدواها، فأقبلوا في شغف على صناعة "حروبهم الاهلية الصغيرة"، وجعلوها طقس حياتهم اليومية المشتركة في ملاعب طفولتهم وصباهم. اي في شوارع عجلتون، وفي الفسحات بين بيوتها واحيائها، وفي غيرها من الخلاءات والاماكن العامة. كأنما لم يكن في مستطاعنا، نحن الاطفال والصبية، ان نتعارف ونلهو ونلعب، وان نباشر افعالا وانشطة مشتركة، وأن نتخذ لنا مثالا وطقسا جماعيين، في منأى عن عالم "حروب الكبار" التي كانت صورها وأخبارها تتناهب ابصارنا واسماعنا ومخيلاتنا في كل وقت ومكان. فاذا كانت الحرب هي الحدث اليومي الابرز والاعم، الاقوى والاشمل، في عالم الكبار، فإن ما تسلط على وجودنا، تسلطه على وجودهم من قبل، انما هو الحرب التي جعلناها مثالنا الجمعي وطقسنا اليومي المشترك، بعدما ملأت صورها مخيلاتنا، وسرى زمنها ودبيبها في نسيج حياتنا، وحياة الكبار من قبلنا، او تحت هذا النسيج، سريان الدم في الاجسام.

كانت أخبار المخطوفين وصور الأعضاء البشرية المبتورة والشياطين... موضوعاتي الأثيرة في هواية الرسم

حروب الأطفال الأهلية

في البداية، رحنا نقيم في اوقات لهونا حواجز على الطرق في البلدة، فنوقف السيارات ونسأل ركابها، وكذلك العابرين سيرا على اقدامهم، الى اين هم ذاهبون، والى اي ناحية يتجهون، وان يبرزوا لنا بطاقاتهم. وقد راقت لنا استجابة العابرين للهونا هذا، مبتسمين وراضين مرضيين، ومثلنا لامين. وكم سمعنا بعضهم يقول لنا، فيما هو يغادر حاجزنا مبتسما: "يعطيكم العافية شباب".

لا أدري إن كان إذعان الناس المدنيين المسالمين للهونا وعبثنا هذين يدل على ما في نفوسهم من رغبة كفيفة، مستترة او غير مدركة، في النكوص او الارتداد الى عالم الطفولة الذي يريهم رؤية الحالم في اليقظة او في النوم، ان الحرب، التي تنوء بقسوتها ومرارتها على حياتهم، هي مشهد من مشاهد لعب الاطفال. وربما يصدر إذعانهم ذاك عن رغبة اخرى معاكسة تماما للاولى: قبول العابنا بصفتها مدرسة ابتدائية لاعداد المحاربين.

اما نحن الاطفال والصبية، فعلى صورة "حروب الكبار الاهلية" ومثالها، سرعان ما انتقلنا من مرحلة الحواجز الجماعية، المهرجانية والمشتركة، على الطرق، الى مرحلة اخرى: الحروب العصبوية الداخلية في ما بيننا، والتي انقسمنا لخوضها زمرا او عُصبا وتسلحنا لها بالحجار والنقيفات، وابتكرنا في مجابهاتها تقنيات "حروب الكبار" نفسها: القنص والكمائن والاغارة والخطف والاحتجاز والتعذيب، من دون ان نصل الى التهجير والاقتلاع الثأريين. وهكذا، في منأى عن ابصار أهلنا وأسماعهم، ارتسمت لحروبنا هذه حدود وحمىً ومعاقل، لا اظن انما كانت تعكس صورة من صور انتماءاتنا الاسرية والعلاقات القرابية والاهلية او التراتب الاجتماعي في البلدة. وفي هذه المجابهات أنزل بعضنا بالبعض الآخر خسائر لا بأس بها: جرحى وتحطيم زجاج بيوت. غير أن الخطف والتعذيب المتبادلين كانا أعنف تقنياتنا الحربية، أشرسها واقساها: في اماكن مهجورة كنا نحتجز المخطوف، بناء على امر قائد الزمرة او العصبة الذي يتولى بنفسه تعذيبه في ان يجرّعه سائلا هو مزيج من الخل والزيت والبيض واللعاب. وهذا ما كان يؤدي الى اصابة المخطوف بالتقيؤ،

قبل ان يرتمي خائر القوى في مكان احتجازه. وغالبا ما كان القائد الذي يتولى التعذيب يغادر المكان تاركا امر حراسة المخطوف لأتباعه.

لم ينتبه اهل البلدة الى خطورة دبيب هذه الحرب بين ابنائهم، الا بعدما استُعملت فيها، اخيرا، اسلحة الصيد، فسقط نتيجة ذلك جريح كان جرحه طفيفاً، الامر الذي حمل أهلنا على ايقاف "حروبنا الاهلية" هذه التي استمرت سنوات. وهكذا كان على كل منا ان يتدبر لمراهقته التي أزف وقتها هواية جديدة وتسلية جديدة غير الحرب.

أهواء المراهقة وحيرتها

أخرجتني المراهقة من حروب الطفولة والصبا الى ادوار اخرى متزامنة ومتلاحقة ما كانت لتستقر على حال ولازمها قلق وجودي متماد: تركت شعري يطول كثيرا، وأهملت واجباتي المدرسية، وتحولت تلميذاً كسولا، وجعلت من المشاكسة والطيش دوراً من ادواري وسلوكا لي في الصف والمدرسة، وانتسبت الى فرقة كشفية. والى المطالعة ملت ميلا جارفا وكذلك الى كتابة الشعر والرسم الذي كنت شغوفا بممارسته منذ صغري. لكنني حين نشرت بعض قصائدي في جريدة "لوريان لو جور" وقرأتها، اخذتني نوبة من غضب مازجها احراج وخجل، اذ احسست بشيء من العري ازاء نشر الحميم والخاص من مشاعري على صفحات جريدة، فأقلعت عن نشر ما اكتبه من اشعار. طوال سنوات ظلت مشاهد الاعضاء البشرية المبتورة والشياطين موضوعاتي الاثيرة في الرسم. فمنذ صغري كانت قد تراكمت في ذاكرتي ومخيلتي الصور والاخبار عن رمي المخطوفين عن الجسور وتكديس جثثهم تحتها، وعن جمع مقاتلين آذانا واصابع بشرية مبتورة. وفي سنة من السنوات الدراسية في المرحلة المتوسطة، جاء الى صفي في مدرسة عينطورة تلميذ جديد انتقل واهله من الاشرفية فراح يروي لي اخبار عمليات القنص التي كان يقوم بها والده، واصفا في دقة وشغف مشهد سقوط ضحاياه الذين كان يطلق عليهم النار من بندقيته القناصة ويصيبهم في غفلة منهم، فيما هم يسيرون في الشوارع.

كانت امثال هذه الصور والاخبار موضوعاتي الاثيرة في الرسم: أذن تطلع منها يد، جسم بشري مقطع الاعضاء، وشياطين في خلفية المشهد. ولما توفي جدي لوالدتي وسجيت وسط انوار الشموع جثته على سريره الفخم القديم في منزله/منزلنا في عجلتون، بهرني المشهد فرسمته وجاء الرسم مطابقا للواقع مطابقة تامة. غير ان شغفي بالرسم وتمكّني منه واقبالي على ممارسته، لم يرق لاهلي الذين حالوا، لاحقا، بيني وبين رغبتي في دراسته، لان الرسم، بحسبهم، لا يطعم خبزا، فدرست فن الاعلان، كحل وسط بين رغبتي وارادتهم.

لكن عاصفة اهواء المراهقة والشباب وقلقهما ظلت تطوّح بي زمنا طويلا، قبل ان تهدأ قليلا وتسلمني الى استقرار نسبي او جزئي. ففي مطعم والدي وملهاه في قبو منزلنا، كانت قد راقت لي، وانا في الثالثة عشرة من عمري معاشرة عازفي الفرق الاجنبية ومغنيها، وهي الفرق التي كان والدي يستقدمها من الخارج للعمل والاقامة عندنا. وربما هي رغبة والدتي في تربيتي تربية حرة، واصرارها على ذلك، ما اتاحا لي معاشرة هؤلاء المغنين والعازفين الذين كانوا يكبرونني بسنوات كثيرة، ومنهم اكتسبت، الى ذائقة وخبرة موسيقيتين وغنائيتين شديدتي التنوع، نضوجا مبكرا في امور الرغبة والجنس التي ما كانوا يكفون عن الكلام فيها اثناء جلساتهم النهارية والمسائية الطويلة. ولا ادري اذا كان نفوري من الجاز، وشغفي بالموسيقى والغناء الشعبيين يعودان الى تأثير تلك الحقبة من عمري التي لا شك في انني ادين لها ولمهنة والدي ولتعلقه بالغناء والموسيقى، بشيء من اقبالي على العزف والغناء واحترافي التلحين، لاحقا. اذ، على عكس تعلقي بالرسم والشعر، لم يحل سبب بيني وبين استمراري حتى الساعة، في ترجحي بين هوايتي العزف واحترامي اياه، شأن التلحين وغيره من الموايات التي امارسها ككتابة الرواية باللغة الفرنسية. في غضون معاشرتي مغني الفرق الاجنبية وعازفيها، ألمّ بي ميل جارف الى الانخراط في سلك الرهبنة. كنت آنذاك في سن الرابعة عشرة. غير أن ذلك الميل سرعان ما انطفأ كي ينمو شيئاً فشيئاً في نفسي ميلٌ الى الإلحاد، نجم عنه شعورٌ عدمي أيقظ فيّ رغبة جارفة في عدم احترام الأنظمة والضوابط الاجتماعية. وهكذا أمسيت تلميذاً مشاغباً في المدرسة التي ازدادت مشاكستي اجواءها وانظمتها وزملائي من تلامذتها، الامر الذي ضاعف كسلي الدراسي وميلي الى سلوك غريب كان يلهب غضب المعلمين والإدارة. من ذلك انني جعلت، كلما كلمني معلم في الصف، اظل جامدا صامتا كتمثال، فلا انبس بكلمة واحدة مهما فعل المعلم، ولو اسلمه فقدان الصبر الى نوبة من الغضب والصراخ وسط مرج تلاميذ الصف وتضاحكهم. واحيانا ما كنت لأكتفي بدور صمت التماثيل وجمودها الحجري لاغاظة المعلمين واغضابهم، فجعلت من حبي للأقنعة ورغبتي في التقنع دورا جديدا من ادواري الفرائبية المثيرة في الصف. واخيرا، في السنة الدراسية الاخيرة من المرحلة الثانوية، وفيما كان الاستاذ يشرح الدرس، لففت جسمي كله بشرشف وجلست على طاولة مقعدي التي ما انزلني عنها ولا حملني على الكشف عن وجهي حضور الكاهن بنفسه الى الصف. وهذا ما ادى الى طردي من المدرسة، "لان التفاحة الممترئة تؤدي الى اهتراء تفاحات الصندوق كله" على ما قال المدير وردد على مسامع ابي، مستعيدا قولا لبنانيا شائعا ربما حصله اللبنانيون من خبراتهم في زراعة التفاح وتوهيب اثماره في صناديق لتصديرها الى الخارج.

دفعني حب التقنع والمسرح الى لفّ جسمي بشرشف والجلوس على طاولتي في الصف... فطُردت من المدرسة

والحق انني كنت وما ازال امقت وجوماً كثيرة من عقلية اللبنانيين العمومية الشائعة، والتي عنها تصدر امثال هذه الاقوال. ومما امقته شديد المقت ايضا هو تلك النعرة العنصرية، الغبية والتافهة، والتي مصدرها الاعتداد الفارغ بالنفس، وحب اظهار التمايز الاجتماعي على نحو فاقع ومشمود، في سلوك اللبنانيين عموما. ومن تجربتي ارى ان لعنصرية اللبنانيين هذه وجهين اثنين: وجه قومي او وطني اختبرته في مدرستي في بدايات الحرب، ووجه اجتماعي اختبرته لاحقا في المدرسة نفسها، قبيل طردي منها.

كانت كثرة من زملائي واترابي على مقاعد الدراسة، وهم في غالبيتهم ابناء فئات ميسورة، ويجعلون يسار اهلم باعثا على تمايزهم الفردي والشخصي وتشاوفهم، تتلذذ في اهانة الاشخاص الضعفاء والبائسين واحتقارهم والاعتداء عليهم وايذائهم، لا لشيء الا لانهم فقراء ومن مرتبة اجتماعية دنيا، وليسوا اهل يسار. كأنما الفوارق والمراتب الاجتماعية في مثل هذين الوعي والسلوك، تقيم بين البشر والناس حدودا وحواجز مصدرها التمييز العرقي العنصري الذي ينحدر بأهل المراتب والفئات الدنيا الى ما يشبه الحضيض الحيواني. والا ما كان باعث اولئك الزملاء والاتراب في مدرستي على تلذذهم بتعذيب بواب المدرسة الشمالي الفقير تعذيبا جسديا واخلاقيا، بأن يرشقوه وجها لوجه بالحصى ويشتموه او بأن يقف احدهم خلفه مباشرة ويروح كظل له، يتهكم به ويقلّد على نحو كراكوزي، حركاته وسكناته، قبيل ان يدفعه دفعة قوية تكاد توقعه ارضا، وسط تضاحك الآخرين ومرحهم؟!

رغم تمرسي وتلذذي في اغاظة المعلمين واغضابهم حتى اخراجهم عن طورهم - ولا ادري ان كان هناك من شبه بين تلذذي هذا وتلذذهم - كنت اغتاظ واتقزز من سلوكهم حيال البواب البائس، ويتفطر قلبي الما للآلام التي ينزلها في نفسه احتقارهم وتعذيبهم اياه، فاخجل من نفسي لأنني اقف في صف قساة القلوب وغلاظها هؤلاء الذين ربما اختلف عنهم في انفطاري، في تربيتي الاسرية، على حس انساني عدالي يحول بيني وبين حمل الفوارق الاجتماعية والطبقية والعرقية ايضا، مهما عظم شأنها وباعدت بين البشر، على فارق طبيعي اصلي يبعث على اخراج هذه الفئة من البشر او تلك من المملكة الانسانية الى المملكة الحيوانية. غير ان هذا الحس الانساني العدالي ما حملني مرة على الشعور بالذنب حيال الفقر والفقراء، ولا كان تحدري من اهل يسار وانتسابي اليهم يبعثان في نفسي حاجة الى "كفارة طبقية" قوامها التقنع بسلوك "التقية" الاجتماعية.

لكن لا يحسبن احد انني كنت احب الفقر والفقراء، انما على العكس من ذلك، كان الفقر يزعجني وانفر منه على نحو ما تزعجني البشاعة والتعاسة والبؤس في مظاهرها كافة وانفر منها، من غير ان اجعل ذلك الانزعاج والنفور معينا لاحتقار الفقراء في انسانيتهم. وهو الاحتقار الذي يشكل مظهرا للتمييز العرقي العنصري في وجهه الاجتماعي او الطبقي.

ضد مجتمع الحرب وشعائره

وربما من الحس الانساني العدالي ذاك، تنامى شغفي بالاختلاء والعزلة، احيانا، فجعلت ارتاد وحيدا واديا بين عجلتون ودرعون، واقضي اوقاتا في التأمل والقراءة، واتمتع بطقس انفرادي وعزلتي. هناك كم جلست على صخرة، هكذا، صامتا محدقا في الاشياء الساكنة من حولي. وكم كنت استمتع، فيما انتظر خاشعا هبوب العاصفة التي يغمرني، حين هبوطها، صخب كنت اخال ان قوته العاتية تقتلعني من جذوري وتأخذني من نفسي. وفي عزلاتي تلك قرأت جيرار دونرفال وفيكتور هوغو. ثم ما لبثت ان جعلت مقبرة عجلتون الجديدة التي انشئت قرب القديمة، مكانا لخلوتي وخشوعي. وفي فرسا، حين اقمت لاحقا، سنوات وحدي، داومت على ارتياد المقابر، حيث كنت اعيش اوقاتا من الرهبة والسكينة المطلقة، قارئا احيانا ما كُتب على المقابر.

هل كنت استعيض بالرهبة والخشوع في كنف الطبيعة وفي صمت المقابر الجنائزي عما افقدني اياه الحادي؟ لا ادري، ولا أدري ايضا ان كانت لالحادي ذاك صلة بما اقترفته وشلة الصبا، ام انه، اي ما اقترفته، كان استئنافا لمشاكستي المدرسية في حيز آخر، هو الحيز الاجتماعي

في دور طباخ مطعم.

في معرجان سياسي طالبي مع جبران تويني.

مع دميس روسوس في بسكنتا.

مع المغني الفجري العالمي آل شاتو.

من حروب الاطفال الاهلية.

رفاق طفولة الامس.

العام.

كانت قد شاعت في بلدات كسروان وقراها، ومنها عجلتون طبعا، عادة وضع تماثيل صغيرة للعذراء على نواصي الشوارع وقرب البيوت. وفي ليلة معينة، وعن سابق تصور وتصميم واعداد، اجتمعنا نحن شلة الصبية وقمنا متخفين مستترين بعتمة الليل ومسلحين بعصي كبيرة ومستعملين سيارات آبائنا، بغارة منظمة على التماثيل في بعض البلدات والقرى الكسروانية، فحطمنا منها الكثير، وولينا هاربين من دون ان ينكشف امرنا. وفي الصباح التالي اذهل ما فعلناه الاهالي وضجت به المنطقة كلها، واذ ما استطاع احد تخيل فاعل محلي لهذه الفعلة، نسبها الجميع الى فاعل عدو وغريب عن الجماعة والاهالي والمنطقة.

اعلم ان فعلتنا تلك كانت اشبه بانتفاضة شبابية سرية محلية وصغيرة، ضد المناخ الاجتماعي العام الضاغط الذي كان يحاصرنا في زمن الحرب والتعبئة العسكرية العامة في المناطق المسيحية. وهي التعبئة التي ما استطاع تيارها العام الصاخب ان يجرفنا، نحن بعض ابناء الفئات او الاسر الميسورة، تلك التي حالت ثقافتها المجينة او الكوزموبوليتية المحدثة وحال ضعف صلاتها بالعصبية الاهلية الطائفية، دون اقبالها على الانخراط في الحرب، ودون مشاركتها في صناعة طقوس هذه الحرب وشعائرها ورموزها الجمعية او الجامعة. وفي عام ١٩٨٥، حاولت شلل من ابناء هذه الاسر نفسها في بعض مدارس النخبة في المنطقة الشرقية صناعة طقوسها وشعائرها المضادة، فعملت، طوال ستة اشهر على التحضير للقاء شلل من طلاب مدارس النخبة في المنطقة الغربية على خطوط التماس.وكنت بين الناشطين في تلك الطقوس والشعائر، فاجتزت للمرة الاولى في حياتي خطوط التماس بين البيروتين تحضيرا لذلك اللقاء الذي ازعج التحضير له "القوات اللبنانية" وحيرها امره واستراب منه، فعملت مع من يكافئها في المنطقة الغربية على الحؤول دون انجاز ذلك اللقاء – التظاهرة الذي سابق تساقط القذائف حدوثه، كما هو معروف وشائع. وهكذا عادت هذه الشلل الى الانكفاء، لتعيش مجددا حالا من الضيق في مناطقها، بعدما أجهضت محاولتها الخروج على الحصار والكبت، للانفتاح على شلل تكافئها في المناطق الاخرى.

انا وبعض من اقراني في واحدة من تلك الشلل، ومن اولئك الذين كنا قد اغرنا على التماثيل فحطمناها، جعلنا في بدايات ما اتاحته "حركة العماد ميشال عون" من اضعاف لسطوة "القوات اللبنانية" ولتسلطها المنفرد على الشارع والرأي العام في الوسط المسيحي، جعلنا لضيقنا بهذه "القوات" متنفسا في ان نسلك سلوكا مشاكسا واستفزازيا لعناصرها، كلما مررنا في سياراتنا الخاصة على حواجزها المسلحة. والحق أن ضيقنا ب "القوات" ما كانت السياسة في معناها المباشر معينه ومصدره، بل رفض الرضوخ لأي سلطان وسطوة عاريين، قطيعيين ورعاعيين، يماثلان سلطانها وسطوتها على الحياة الخاصة والعامة. ومن مظاهر عبارتنا عن ذلك الضيق اننا رحنا، كلما سألنا عناصر حاجز ما من اين نحن، نجيبهم في نبرة حادة وقاطعة: "من هون". وكانت النبرة اياها لسان حالنا اذا سئلنا من اين نحن آتون والى اين ذاهبون فنجيب: "من هون" و"لهون". ربما هي "حركة العماد ميشال عون" منحتنا قوة اضافية على مشاكسة سطوة "القوات اللبنانية" التي ارغمها التململ الذي اطلقته في الشارع ولدى الرأي العام المسيحي "حركة الجنرال" على التراخي والصبر ازاء السلوك الاستفزازي الذي اتبعناه على حواجزها المسلحة. وهو السلوك الذي كنا نخاف مما قد يؤدي اليه من ردود فعل ضدنا، لكننا في المقابل، كنا نلتذ بخوفنا لذتنا بمشاكستنا واستفزازاتنا التي كانت تبعث في انفسنا شعورا غامرا بالقوة والرضى والتحرر. اما شعور "القوات" في تلك الفترة بأن ركائز سلطانها وسطوتها في الشارع وعلى الناس تتعرض لشيء من الاهتزاز، فقد حملها على البدء بتنظيم حملات تأييد لها، فجعلت وفود من اهالي القرى والبلدات والمناطق المسيحية تؤم "المجلس الحربي" في الكرنتينا لتقديم ولائها وتأييدها للقائد سمير جعجع. استكمالا لسلوكنا الاستفزازي الذي اتبعناه على الحواجز المسلحة، نظمنا، نحن بعض الطلاب المشاكسين، وفدا طالبيا الى "المجلس الحربي" معلنا عن رغبته في تقديم التأييد والولاء للقائد الذي لما ادخلونا الى مكتبه ورحب بنا، راح أحدنا يتكلم معلنا التأييد للجيش وللجنرال عون، فأصيب القائد بالذهول وامتقع وجهه وجعل يتلفت حوله لا يدري ماذا يفعل ويقول. في أحد النهارات اعترضت سيارة مجهولة، فجأة، طريق سيارتي التي كنت اقودها على مستديرة الصالومي، والى جانبي زميلة لي في "معهد الالبا" الذي كنت طالبا فيه. كنت ما ازال خلف مقود سيارتي محاولا، وسط زحمة سير خانقة، التراجع بها الى الوراء، لما رأيت الشبان الذين ترجلوا من سيارتهم المجهولة امامي شاهرين مسدساتهم. وسرعان ما الصقوا المسدسات بوجهينا قبيل اخراجي من السيارة وزميلتي التي أمروها بمغادرة المكان، فيما راحت ضرباتهم بأعقاب المسدسات تنهال على رأسي ووجهي وسط ذهول سائقي السيارات المزدحمة وركابها الذين ربما شبّه بعضهم المشهد في خبره اللاحق عما رآه بمشهد في فيلم سينمائي من افلام المافيا. كان المشهد سريعا وخاطفا وانتهى بتضميد جروحي في المستشفى.

في اعقاب هذه الحادثة انخرطت في نشاط محموم في "حركة العماد عون" فأدخلني هذا النشاط المسعور الذي ملك عليّ وقتي كله، في حال من النشوة والسكر ما أفقت منهما الا على انفجارات القذائف الصاروخية التي اطلقتها راجمة لـ"القوات اللبنانية" وقفت، ابان الجولة ما قبل الاخيرة من الحرب، في احد شوارع عجلتون، وصبت نيران مدافعها على بيتنا، فأصابت طبقاته العليا، فيما كنا نحن جميعا مختبئين في القبو. وفي الايام القليلة التي اعقبت هذه الحادثة لم تهدأ نوبة الغضب والقلق العارمة التي المّت بوالدي، الا بعدما قرر ان نسافر جميعا الى فرنسا التي اقمت فيها وحدي سنتين اثنتين، في اعقاب عودة اسرتي الى لبنان.

جعلتْ مقبرة عجلتون مكاناً لخلواتي وعزلتي. ورهبة المقابر ذودتني ما أفقدني إياه إلحادي

فوق الحدود والهويات

اليوم، انا ابن الثامنة والعشرين ولغات خمس: العربية، اليونانية، الفرنسية، الانكليزية والاسبانية التي اجيدها اقل من الاخريات، لا اشك في انني سأضيف الى هذه اللغات لغات جديدة، ما دمت موقناً انني سأوزع سنوات عمري اللاحقة على بلاد كثيرة اعيش عادات أهلها وتقاليدهم واتعرف على فنونهم الشعبية في الرقص والغناء والموسيقى والرسم. وما يعزز في نفسي هذا اليقين انما هو عدم مقدرتي على العيش والاقامة في بلد واحد اكثر من ثلاث سنوات، أنا من عشت أكثر من سنة في صحبة الفجر. هذا اضافة الى عدم رغبتي في الزواج، انا من لا اطيق صحبة فتاة ومساكنتها على نحو دائم، وابذل ما في وسعي من وسائل وادوار للوصول الى فتاة اريدها. في مراهقتي في عجلتون جلست اوقاتا متصلة من نهارات كثيرة على حجر قبالة منزل فتاة تكبرني بسنوات وقعت في هواها وما اعارتني انتباها. لكن جلوسي ذاك الذي اقلق اهلي، لم يجدني نفعا. وفي باريس، اذ لم تلتفتْ اليّ فتاة اعجبتني واقامت على صدّي، اتيت بصحبة عازفين موسيقيين من اصدقائي، وجعلنا على رصيف الشارع قبالة المبنى الذي تقيم فيه، نعزف لها، فيما راح محل للزهور يرسل اليها في بيتها، بحسب ما اوصيته، باقة من الزهر كل ربع ساعة.

اما النشاط السياسي المحموم الذي انخرطت فيه ابان "حركة العماد ميشال عون" فليس سوى دور من ادواري، وله ادين في اخراجي من نفسي وتوسيع رقعة حياتي في تلك الحقبة المنقضية من عمري. فانتسابي الى هذه الحركة ما كان مصدره او الباعث عليه عصبية لبنانية جمعية ثابتة او اصلية في نفسي وكياني. واذا كنت اشعر انني لبناني اكثر مني فرنسيا، فان لبنانيتي هذه هي التي اتاحت وتتيح لي ان اكون ما انا عليه من عدم تجذر في مكان وارض وبلاد، وفي حل من الارتباط العضوي بهوية تاريخية، وطنية او قومية جامعة مانعة. كأنني في هذا اشبه اليهود الذين قرأت كثيرا عن حلمهم وترحالهم في بلاد كثيرة، فوق الهويات والحدود. وهذا ما حملني مرة ومن قلب عاصمة عربية هي بيروت، على رفع تحية لضحايا المحرقة النازية. والأمر إياه يحفزني أيضاً على الحلم في أن أنشىء عملاً فنياً في الكنيست الإسرائيلية يجسد تحية لحايا الشعب الفلسطيني. أما ما تعلقي بتشي غيفارا فهو وجه من وجوه شغفي بالكيدش وانفطاري على حس انساني عام وشامل. وشأن غيفارا في هذا، شأن غيره من الشخصيات او المثالات الاساسية في حياتي: المسيح، غاندي، شوبنهاور، وسيوران الذي فتنتني كتاباته حين قرأتها في اقامتي الفرنسية. وهي الاقامة التي افضلها على أثناء اقامتي في لبنان، هذا الذي يفقدني ضجيج حياته وصخبها الخارجي، ودبقها، متعة الانفراس في حياة فردية تروح تهب عليّ نسائمها الباردة ما ان اضع قدمي على ارض المطار في فرنسا ■